



في إحدى صفحات الصراع بين الحق والباطل، استدار رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو راكب راحلته – باتجاه وطنه مكة المكرمة، بعِيداً انطلاقه مهاجراً إلى المدينة المنورة، ناظراً إلى الأفق البعيد، موَدِّعاً أغلى وطنٍ وأحبابه إلى نفسه، قائلاً بمرارة المهاجر المتألم الحزين: [وَاللَّهِ إِنِّي لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضَ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكُمْ مَا خَرَجْتُ..] (رواه أَحْمَدُ وَالْتَّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حَبَّانَ).

فَمَنْ ذَا الْكَرِيمُ الْوَفِيُّ الَّذِي يَهَاجِرُ مِنْ وَطْنِهِ، إِلَّا مُضطَرًّا أَوْ مُجْبَرًا؟!..
مَنْ ذَا الَّذِي يَغْدِرُ وَطْنَهُ مِنْ أَبْنَائِهِ الْأَبْرَارِ؟!.. لَوْلَا أَنَّ الْوَطْنَ صَيْرَهُ الْمُسْتَبِدُونَ الْمُتَجَبِّرُونَ دَمْعَةً حَزِينَةً، وَأَنَّهُ ثَلَى، وَشَلَالَ دَمٍ
مَهْرَاقَ، وَلُقْمَةً مَغْمَسَةً بِالذَّلِّ وَالْأَحْمَرِ الْقَانِيِّ، وَأَرْضًا تَمِيدُ بِأَهْلِهَا، وَسَوْطًا مُسْلَطًا عَلَى الظَّهُورِ وَالرَّقَابِ، وَقَبْوًا مَظْلَمًا، وَكَرَامَةً
مُضَيَّعَةً، وَهَلَاكًا لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ؟!..

لَا يَعْرِفُ مَرَأَةُ الْفَرِيْبَةِ إِلَّا مَنْ فَقَدَ الْوَطْنَ، وَلَا يَدْوُقُ أَلْمُ الْحَزَنِ إِلَّا مَنْ اضْطُرَّ لِهِجْرَةِ وَطْنِهِ، وَلَا يُقْدَرُ حَلَوَةُ الْوَطْنِ إِلَّا مَنْ ذَاقَ
عَلْقَمَ الْهَجْرَةِ وَالْتَّنَقْلِ وَالْتَّرْحَالِ بَيْنَ الْبَلَادَيْنِ، فَهِينَ تَجِيَشُ الْذَّكَرِيَّاتِ، تَصْرِخُ الْعَبَرَاتِ: وَطَنِي لَا يَعُوْضُهُ فِي الدِّينِيَا وَطَنِ!..
مَنْ ذَا الَّذِي هَجَرَ أَرْضَهُ الْحَبِيْبَةِ.. لَا يَتَحَرَّقُ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَا يَتَلَوَّ أَلْمًا عَلَيْهَا، وَلَا يَسْكُنُ إِلَى عَبَرَاتِ الْحَنِينِ لِكُلِّ نَسْمَةٍ عَلَيْهِ
كَانَتْ تَلَامِسَ – فِي رَحَابِ الْوَطْنِ – وَجْنَتِيَّهِ؟!..

مَنْ ذَا الَّذِي لَا تَحْمِرُ مَقْلَاتَهُ عَذَابًا لِفَرَاقِ الْوَطْنِ الْغَالِيِّ الْعَزِيزِ، وَلَا يَذُوبُ قَلْبَهُ كَمَدًا عَلَيْهِ، وَلَا يَتَوَقُ إِلَى رَيْحَانِ تَرَابِهِ الْعَذْبِ
الْمَعْفُورَ بِلَظِي ذَكْرَاهِ؟!..

وَمَنْ مِنَ الَّذِينَ ذَاقُوا مَرَأَةُ الْهَجْرَةِ وَالْتَّهْجِيرِ مِنْ أَوْطَانِهِمْ، لَمْ يَحْتَفِظْ فِي صَدْرِهِ بِصَوْاعِقِ الْحَزَنِ، الَّتِي حَينَ تَنَفَّجِرُ.. تُفْجِرُ كُلَّ
رَصِيدِ الْأَحْزَانِ الْمُتَرَكِّمَةِ فِي الصَّدُورِ.. عَلَى الْأَوْطَانِ، وَالْأَحْيَاءِ وَالشَّهَدَاءِ مِنَ الْخَلَّانِ؟!..

حَينَ نَفْدَ الْوَطْنِ، وَيَتَعَذَّرُ عَلَيْنَا أَنْ نُقْيِمَ دَاخِلَهُ، فَمِنَ الضرُورِيِّ أَنْ نَبْنِيَ فِي نَفْوُسِنَا، وَنُسْكِنَهُ فِي أَعْمَاقِنَا، لِيَصِيرَ جَنَاحَيْنِ
لِرُوْحَنَا، فَيَبْقَى يَسْكُنَنَا فِي دَاخْلَنَا، نُحِسِّنُ بِهِ، وَنَسْتَشْعُرُ عُلُوًّا وَمَكَانَتَهُ، وَنَنْدِعُ لِتَحْرِيرِهِ بَعْدَ أَنْ هَجَرَنَا.. فَمَنْ تَعَذَّرُ عَلَيْهِ أَنْ

يسكنَ في وطن، عليه أن يُسْكِنَه بين ضلوعه، ليتذَكَّر في كل وقتٍ وحين، بأنَّ الإنسان لا قيمة له من غير وطن، فمَن يُسْتَرِدُه في أعماقه، لا بد أن يُسْتَرِدُه من مُحتلِّيه!..

نَحْنُ الْمَهَاجِرُونَ أَوَ الْمَهَاجِرُونَ، نَتَوَقُ إِلَى وَطْنٍ آمِنٍ عَزِيزٍ كَرِيمٍ حُرٌّ مَنِيعٍ، تَبْنِيه سَوَاعِدُنَا الْمُضْمَمَة بِرَحْيَقِ يَاسِمِينِ الشَّامِ وَبِيَاضِهِ، وَلِسَانُ الْحَالِ يَرْدَدُ أَهْزَوْجَةَ الثَّوَارِ بَيْنَ جَنِيَّاتِ النُّفُوسِ الْوَاثِقَةِ: [مَا لَنَا غَيْرُكَ يَا اللَّهُ].

نَمْضِي، بَعِيُونٍ مُكَحَّلَةً بِدَمِ شَهَادَتِنَا الْأَبْرَارِ، تَرْفَرُفُ حَوْلَنَا أَرْوَاحُ أَطْفَالِنَا الَّتِي أَزْهَقَهَا الْهَمْجُ الْأَسْدِيُّونَ.. نَمْضِي، مُزَوَّدِينَ بِعَزْمِ خَنْسَاوَاتِ سُورِيَّةِ، وَإِصْرَارِ مَجَاهِدِهَا.. فَالشَّامُ وَطْنُ الْأَحْرَارِ، وَطَنُنَا، يَسْتَقِرُّ خَالِدًا بَيْنَ ضَلَّوْنَا، لَا يُفَارِقُ صَدُورَنَا، وَلَنْ يَغْيِبَ عَنْ حَدَّقَاتِ عَيْنَنَا وَثَنَابَاً أَعْمَاقَنَا.. إِلَّا بِوَقْفِ أَنْفَاسِنَا، وَافْتِرَاقِ أَرْوَاحِنَا عَنْ أَجْسَادِنَا!..

المصادر: